

اسلوب التفكر «الفكر كالماء» السائح البناء

في ضوء معالم قرآنية

د. محمد فوزي عيسى

«الكاريكاتور» كلمة معربة عن أصل إيطالى ، تطلق على صورة مرسومة لشخص أو مجموعة أشخاص، أو لمشهد من المشاهد، أو مثالب ونقائص، وإخلاق وعادات وتقاليده مرذولة، وغيرها من الأعراض السيئة، التى تشيع فى مجتمع من المجتمعات، وهذه الصورة الكاريكاتورية مرسومة بطريقة تقوم على أساس عنصر التجسيم للعيوب والنقائص، ومسوخ الصورة، لتستثير السخرية، والتندر، والتهكم، والاستهزاء، والاستهانة والتحقير، بل والاضحاك أيضا^(١).

والمدافع الأساسى لذلك قد يكون هجوما موجها للأعداء، للنيل منهم وتحطيم معنوياتهم، أو للنقد والإصلاح الاجتماعى، حيث يعتبر ذلك من أقوى الأسلحة الاجتماعية الذى تحافظ به الجماعة على كيانه، ومقوماتها المختلفة، وذلك عندما يسلط سلاح «الكاريكاتور» على الخارجين على هذا الكيان، أو هذه المقومات المختلفة. وهذا وإن كان فى ظاهره يعالج أمرا شخصيا، فانما القصد الحقيقى منه جعل هذا الفرد أو الأمر الشخصى غוזجا لظاهرة عامة، أو شائعة فى المجتمع، بهدف القضاء عليها، ومن أمثلة ذلك تصوير شخصيات : البخيل، أو المتكبر، أو المنافق. فان الصورة الكاريكاتورية وإن كانت قد تقمصت ظاهرة شخصية معينة، إلا أن الشخصية ليست الهدف، وانما الهدف هو النعى على البخيل، أو التكبر، أو النفاق، باعتباره سلوكا بارزا فى مجتمع ما^(٢).

والقرآن الكريم يحتوى على كثير من المعالم القرآنية فى مجال التهكم وقد ينظر البعض الى ذلك على أنه لا يتفق مع جلال القرآن الكريم وهو كلام الله سبحانه وتعالى.. ولكن هؤلاء البعض يغفلون حقيقة هامة، وهى أن من أهداف القرآن الكريم واعتباراته، أنه دستور المسلمين، والمدافع عنهم، والمهاجم لأعدائهم.. ومن هنا فليس هناك اختلاف بين عداة القرآن الكريم، وعداء المسلمين لأعداء العقيدة الإسلامية، لأن القرآن

(١) أحمد عطية الله - دائرة المعارف الحديثة (القاهرة ١٩٥٢) ص ٥٢٦ وكذلك عبداللطيف حمزة - المدخل فى فن التحرير الصحفى (القاهرة - الطبعة الرابعة ١٩٦٨) ص ١٣٧.

(٢) عبدالجليم حنفى - أسلوب السخرية فى القرآن الكريم (القاهرة ١٩٧٨) ص ١٥ و ١٧ و ١٩ .

الكريم يعتبر ممثلا للمسلمين فيما يتعلق بالإسلام بوصفه عقيدة وشريعة.. والقرآن الكريم وهو يسوق بعض الصور الكاريكاتورية والساخرة، انما يحشد سلاحا هاما من أسلحته وطاقاته ليعزز مركز المسلمين ويقوى من عزيمتهم في صراعهم الرهيب مع الأعداء، ويدفعهم إلى النصر، وفي الوقت نفسه يحطم مركز أعداء الإسلام ويدفع بهم إلى الهزيمة، أو الشعور بها، أو توقعها.. ومعروف أن أعداء الإسلام قد اتخذوا من السخرية سلاحا نفسيا رهيبا ليحطموا به عزم المسلمين، ويزعزعوا من ثقتهم في أنفسهم وكيانهم وعقيدتهم. ولكن القرآن الكريم يتصدى لهم بسخرية أبلغ وقعا، وأشد تحطيا، وأنفذ سهبا^(٣).

فالسخرية التي تظهر بوضوح في الرسوم الكاريكاتورية، تؤدي دورين هامين لصالح الساخر وحزبه، أحدهما تقوية الروح المعنوية في صفوفهم، من حيث انها تنبع من الشعور بالتفوق، والانتصار، وتعيد الثقة الى النفوس. والآخر هو أن السخرية تضعف الروح المعنوية في الذين توجه اليهم، وذلك لأن السخرية تعتمد الى قوة التصوير، وإبراز نقائص المتهكم بهم وعيوبهم، وتجسيم هذه العيوب بصورة واضحة. وهذا يجعل الساخرين يشعرون بالتفوق والانتصار، وأنهم أرفع من المتهكم بهم وأقوى. ويجعلهم يحتقرون أعداءهم ويزدرونهم، ولا يعقل صدور الاحتقار والازدراء إلا من الأقوى والأعز، بدليل أن القوى قد يكون له خصم مكافئ، فلا يستطيع أن يسخر منه، وحتى مجرد تفوقه أو انتصاره عليه، لا يتيح له السخرية منه، إذا كان يشعر أنه مازال قويا، وما زال يستطيع الصمود والمقاومة. وانما تتاح له السخرية منه إذا شعر بأن شوكتة تحطمت، وأنه لم يعد الخصم القوى الذى يشغل نفسه، ويثير اهتمامه^(٤).

وقبل أن نقدم بعض المعالم القرآنية في مجال الكاريكاتور الساخر التهكمى. يهمننا أن نقرر حقيقة هامة، نؤمن بها أشد الايمان، وهى أن السخرية والاستهزاء والاستهانة والتحقير والتنبية على العيوب والنقائص الى آخر ما يعبر عنه بالرسم الكاريكاتورى محرم^(٥) شرعا لاشك في ذلك. ولكن هذا التحريم يقتصر فقط على ما بين المؤمنين وبعضهم البعض، وفي المجتمع الفاضل الذى يقيمه الإسلام بهدى القرآن الكريم، والدليل على ذلك قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن

(٣) نفس المصدر السابق ص ١١ و ١٢ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ٢٠ و ٢١ و ٢٤ .

(٥) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي - أحياء علوم الدين - (دمشق بدون تاريخ) ج ٣ ص ١١٣ و ١١٤ .

خيرا منهم ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بشئ الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون» (الحجرات ١١)

قاله سبحانه وتعالى نادانا بوصف الايمان لينهاننا عن السخرية وغيرها، ليشعرنا بأن ما يدعونا اليه من إرشاد هو مقتضى الايمان الصحيح، فان المجتمع الفاضل الذى يقيمه الإسلام يهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع، ولكل فرد فيه كرامته التى لا تمس، وهى من كرامة المجموع. فلا تهزأ جماعة بجماعة، ولا يسخر أحد من أحد. فقد يكون المسخور منه خيرا عند الله من الساخر. ولا يسخر نساء من نساء فعسى أن تكون المحتقر منها خيرا عند الله وأفضل من الساخرة. وفوق ذلك يستجيش القرآن عاطفة الاخوة الإيمانية ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة، وكأن من لمز غيره وعابه فكأنه لمز نفسه، كذلك فمن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزرى به، ومن أدب المؤمن ألا يؤذى أخاه بمثل هذا. وقد بدأ الله تعالى بالأهم حيث نهانا عن السخرية التى هى داء له دواع كثيرة، منها حب التطرف، والرغبة فى جلب السرور على الحاضرين ومنها الحسد الكامن والداء الباطن. ثم تنى باللزما فيه من الخفاء والاشارة، وصاحبه قد يستخف به، ثم ختم هذه الارشادات بالتنايز بالألقاب لأنه أخفها، فقد يكون اللقب المكروه مما يتسامح فيه صاحبه إذا شاع وذاع^(٦).

وواضح إذن أن السخرية، واللمز، والتنايز بالألقاب - وكلها مما يمكن التعبير عنه بالرسم الكاريكاتورى - قد قررت الآية القرآنية نهى الله تعالى للمؤمنين عن اتیان ذلك، وبالتالي يكون التعبير عنه بالرسم الكاريكاتورى منهياً عنه أيضاً ومحرمًا. ولكن ذلك النهى والتحريم، يقتصر فقط - كما سبق ذكره - على ما بين المؤمنين وبعضهم البعض، وفى المجتمع الفاضل الذى يقيمه الإسلام يهدى القرآن. ومعنى ذلك أن النهى ليس مطلقا، حيث ان سخرية القرآن الكريم لم تستهدف أعداء الإسلام من غير المسلمين فقط، وانما استهدفت كذلك كل مصدر يمكن أن يسىء الى مبادئ الإسلام، ولو كان المصدر نابعا من صفوف المسلمين أنفسهم، فى صورة عادات، وتقاليد، أو خلق لا تقره مبادئ الدين الحنيف. فكل هذه الأشياء يراها

(٦) سيد قطب - فى ظلال القرآن (بيروت - الطبعة الخامسة ١٩٧٧) ج ٢٦ ص ٣٣٤٤ وكذلك محمد على الصابونى - صفوة التفاسير (بيروت - الطبعة الرابعة ١٩٨١) ج ٢٦ ص ٢٣٥ وأيضا محمد محمود حجازى - التفسير الواضح (القاهرة الطبعة السادسة ١٩٦٩) ج ٢٦ ص ٦٢ - ٦٣.

الإسلام ظلمات تكتنف حياة الناس، وعوائق في طريقهم الى الخير. فهو يريد أن يبدها نورا، ويمهد لهم هذا الطريق من أجل الاصلاح العام، والهداية الشاملة للبشرية كلها^(٧).

والقرآن الكريم، وهو في سبيل الوصول الى هذا الاصلاح، وتلك الهداية يستخدم التصوير، وهو الأداة المفضلة في أسلوبه - كما يقول الأستاذ سيد قطب^(٨) عليه رحمة الله - فالقرآن الكريم يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة، عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الانساني، والطبيعة البشرية. ثم يرتقى بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فاذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، واذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، واذا النموذج الانساني شاخص حي، واذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية.. فاذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني، والحالة النفسية، وتشخص النموذج الانساني أو الحادث المروى، انما هي الفاظ جامدة، لا ألوان تصور، ولا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الاعجاز القرآني.

والآن نأخذ في تقديم بعض المعالم القرآنية في مجال التهكم الكاريكاتوري، وهي كما قلنا كثيرة، وقد شملت كل المجالات، سواء بالنسبة لأعداء الإسلام والمسلمين، أو بالنسبة لمحاربة العادات والتقاليد البالية التي كانت تسود في المجتمع الجاهلي، أو العيوب التي كانت تبرز في الجبهة الداخلية للمسلمين.. الخ.

وبالنسبة لأعداء الإسلام والمسلمين، فقد كان أشد ما يقض مضاجعهم، ويشير ثائرتهم، أن القرآن الكريم، وخاصة في الآيات والصور التي نزلت في مكة المكرمة، كانت تبرز فيها عناصر السخرية والاستهانة بهم، والاستهزاء بزعمائهم وعقيدتهم الفاسدة المنحرفة. فكان يحزن جنون المشركين حين يقسون على المسلمين، حتى يخيل اليهم أنهم بلغوا منهم مما يريدون أو كادوا، فاذا هم يجدون هؤلاء الضعفاء القلة، يقولون كلاما لا يدل على ضعف، وانما يفيض بالعزة والأمل المستحكم في النصر والغلبة، بل يسخرون من الأعداء، ويبلغون منهم في هذه السخرية مبلغا عظيما. فالساخر بطبيعته لا يكون هو الضعيف، بل لابد أن يكون هو الأقوى والأعز، ويملك زمام الموقف، ويثق بالنصر^(٩).

(٧) أسلوب السخرية في القرآن (عبدالحليم حفي) مصدر سابق ص ٢٧ - ٢٨ .

(٨) سيد قطب - التصوير الفني في القرآن (القاهرة - الطبعة الثامنة ١٩٧٥) ص ٣٤.

(٩) أسلوب السخرية في القرآن الكريم (عبدالحليم حفي) مصدر سابق ص ٥٤.

والقرآن الكريم حين يتجه في سخريته وتهكمه وازدرائه، نحو أفراد بعينهم من أشد أعداء الإسلام والمسلمين، لم يكن يعاديهم لمجرد العداء، وإنما لكي يقي الإسلام شرهم، ويدعوهم وغيرهم إلى الهدى والرشاد، وكان القرآن ينال منهم نيلاً عظيماً.

أبو هلب وزوجه :

ومما يدل على ما للقرآن وسخريته التصويرية، من أثر في نفوس أعداء الإسلام والمسلمين، قصة (أم جميل) أخت أبي سفيان، وزوج أبي هلب وهو (عبدالعزى بن عبدالمطلب) عم النبي صلى الله عليه وسلم. وكان كل منها شديد العداوة للرسول صلى الله عليه وسلم، ومن ألد أعداء الإسلام وأكثرهم خطورة.. وقد نزل فيها قوله تعالى: «تبت يدا أبي هلب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارا ذا هلب * وامرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد» (سورة المسد). فلما سمعت أم جميل ما نزل في زوجها وفيها، كادت تفقد صوابها ورشدها، وأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر رضى الله عنه، وفي يدها قطعة من الحجارة. فلما دنت من الرسول صلى الله عليه وسلم، أخذ الله بصرها عنه، فلم تر إلا أبا بكر. فقالت: يا أبا بكر، بلغنى أن صاحبك يهجوئى، فوالله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه.. ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ قال: ما رأيتى لقد أخذ الله بصرها عني»^(١٠)

فما كان أحوج الإسلام إلى من ينحى من طريقه هذه العقبات الصلبة التى تصد الناس عنه. وقد تكفل القرآن الكريم بهذه المهمة، فعمد إلى الطاغية الكبير عبدالعزى، ووصمه بكنية بشعة، أصبحت مقترنة به في ذهن كل من يذكره أو يراه. وأصبحوا يبتسمون فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بينهم وبين بعضهم بعضاً، لأنهم لا يرون أمامهم طاغية، ولا جباراً، وإنما شخصاً يحمل اسماً طريفاً لم يسموا بمثله. هذا الاسم يكسوه لهباً وناراً.. وأما زوج أبي هلب.. فإنا يمكن أن نتصور مبلغ سخرية القرآن من امرأة في ذروة المجد والشرف، ثم هى أثنى ككل امرأة يعينها قبل كل شئ صورتها، ومظهرها في نفوس الناس، وقلوبهم، وإذا هى تجد من يحو عزها وشرفها، ويقبح صورتها، ويرسم لها صورة (كاريكاتورية) ساخرة، حتى يجعلها مجرد

(١٠) صفوة التفاسير، مصدر سابق، ج ٣٠ ص ٦١٨ وكذلك أسلوب السخرية في القرآن الكريم (عبدالحليم حنفى)

مصدر سابق ص ٥٤ و ص ١٢٧ - ١٢٨.

حمالة للحطب، بل أكثر من ذلك يرسم لها صورة مضحكة، وهو منظر امرأة مربوطة بحبل من ليف في عنقها، كما تربط أى دابة.. وأى أشئ، وخاصة إذا كانت في منزلة أم جميل، تتمنى أن يطويها الثرى قبل أن يتمثلها الناس في هذه الصورة الكاريكاتورية الساخرة. وفي رسم منظرها بالحبل في جيدها، قد يكون إشارة الى أنها لا تعدو في تفكيرها وسلوكها نحو الدين، أن تكون دابة كأى دابة تقاد بحبل من جيدها، فليس تفكيرها هو الذى يقودها، وإنما هى مشدودة الى عادات وتقاليد جاهلة ومقودة أيضا بهذه العادات، وذلك كما وصف القرآن غيرها من المشركين بأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا^(١١).

الوليد بن المغيرة :

صورة (كاريكاتورية) ساخرة أخرى، يرسمها القرآن الكريم لعدو آخر من ألد أعداء الاسلام والمسلمين، بلغ من السيادة والمجد في قومه مرتبة لم يبلغها زعيم آخر حينئذ وهو (الوليد بن المغيرة المخزومي) الذى استخدم كل ما يملك من السيادة والمجد، والقوة والسلطان، والذكاء وبسط النفوذ، في حربه للإسلام والمسلمين.. هذه الصورة (الكاريكاتورية) الساخرة تتمثل في كلمات قليلة وعبارة موجزة معبرة في قوله تعالى: «سنسمه على الخرطوم» (القلم ١٦) فهذا الشخص الذى يملأ قلوب أتباعه اعجابا واكبارا، تمسخ سخرية القرآن الكريم مظهره، وتضع مكانه صورة (كاريكاتورية) ساخرة، نرى فيها الوليد بن المغيرة، وقد شوه منه أبرز موقع في أكرم عضو من الانسان، فهو أشبه بحيوان ذى خرطوم، وقد وسم خرطومه بعلامة بشعة منفرة، تشوه منظره، وتثير الضحك والسخرية منه.. ومن معانى الخرطوم أنف الخنزير البرى.. ولعله هو المقصود هنا، كناية عن أنفه.. (والأنف في لغة العرب يكتنى به عن العزة فيقال: أنف أشم للعزیز.. وأنف في الرغام للذليل أى في التراب. ويقال ورم أنفه، وحمى أنفه إذا غضب معتزا. ومنه الأنفة..). والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوى نوعين من الازلال والتحقيق: الأول كما يوسم العبد. والثانى جعل أنفه خرطوما كخرطوم الخنزير.. وما من شك أن وقع هذه الآية القرآنية على نفس الوليد كان قاصما، فهو من أمة تعد هجاء شاعر - ولو بالباطل - مذمة يتوقاها الكريم، فكيف يدمغه بالحق من خالق السماوات والأرض، بهذا الأسلوب الذى لا

(١١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم (عبدالحليم حنفى) مصدر سابق ص ٥٥ و ص ١٢٨ - ١٢٩.

يبارى.. فهذا رسم (كاريكاتورى) ساخر عبر عنه القرآن الكريم فى كلمات قليلة، يمثل الوليد فى منظر مضحك مزر. ويمكننا أن نتخيل الفارق بين نظرة الاكبار والاجلال التى ينظر بها أتباعه اليه، وبين نظرة الضحك والسخرية التى ينظرون بها الى صورته هذه، التى رسمتها سخرية القرآن الكريم^(١٢).

صور قادة الشرك :

كذلك هناك صور كثيرة أخرى للقادة الذين تزعموا حملة الشرك، وحرب الإسلام، الذين يرى فيهم أتباعهم نماذج للعزة والقوة والتسلط . ولكن القرآن الكريم يرسم صورة هؤلاء القادة فى منظر مهين ذليل.. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: «خذوه فاعتلوه الى سواء المجيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق انك انت العزيز الكريم * ان هذا ما كنتم به تمترون» (الدخان ٤٧ - ٥٠) وتبدو روعة الصورة فى الموازنة بين مجد هذا الزعيم وجبروته فى الدنيا، وبين حاله الذليلة المهينة عند الله، حيث يقال للزبانية: خذوا هذا الفاجر اللثيم فسوقوه وجروه من تلايبه بعنف وشدة الى وسط المجيم، ثم صبوا فوق رأسه عذاب ذلك الحميم الذى تناهى حره. ويقال له على سبيل الاستهزاء والاهانة ذق هذا العذاب، فانك أنت المعزز المكرم^(١٣).

ونعلم أن القرآن الكريم يهدف الى الهداية، وتوضيح الطريق المستقيم، وانطلاقا من ذلك نلاحظ أن صوره (الكاريكاتورية) الساخرة، ليست مقصودة لذاتها وانما تشير دائما من طرف خفى أو واضح، الى الهدف الأساسى الذى يستهدفه القرآن الكريم.. فهذه صورة توضح الهدف من رسمها، نرى فيها أعداء الله وهم فى أقصى حالات العذاب والمهانة، فالوجه أكرم ما فى الإنسان، ومع ذلك نرى وجوه المشركين فى هذه الصورة تعذب بطريقة عجيبة، حيث تقلب فى النار، كما يقلب اللحم أثناء شوائه على النار، وهى الوجوه التى كان يراها الناس فى الحياة عزيزة قوية، متمنعة حتى على وعيد ربها. والتعليق على الصورة (الكاريكاتورية) الساخرة،

(١٢) فى ظلال القرآن ، مصدر سابق ، ج ٢٩ ص ٣٦٦٤ وكذلك أسلوب السخرية فى القرآن الكريم (عبدالحليم حنفى) ص ١٢٩ و ص ١٣١.

(١٣) صفوة التفاسير ، مصدر سابق ، ج ٢٥ ص ١٧٧ وكذلك أسلوب السخرية فى القرآن الكريم (عبدالحليم حنفى) مصدر سابق ص ١٠٩.

يوضح الهدف منها، حيث أنهم عصوا الله والرسول من ناحية، وتأثروا بقيادة الشرك من ناحية ثانية. والقرآن الكريم يبين لهم نتيجة هذين الأمرين في هذه الصورة البشعة، التي تقلب فيها وجوههم في النار، ومع الصورة دعوة الى الطريق القويم، وهو طاعة الرسول وعدم الانسياق الأعمى وراء أحد، ولا يسوق القرآن الكريم هذه الدعوة منفصلة عن الصورة، وإنما يجعلها جزءاً منها، بل ويجعلها منطوقة بلسانهم وهم يقاسون هذا العذاب.

«يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَّا
أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا
سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ
ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُّهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا»

(الأحزاب ٦٦ - ٦٨)..

وفي هذا التوضيح الذي تضمنه التعليق على الصورة، توجيه لكل ذى فكر أن يحدد سبيله، ويفكر في مهمة هذا الرسول الذى بعثه ربه اليه، ويفكر في وضعه مع هؤلاء السادة الذين يقودونه، وينساق وراءهم في غير تفكير، فيعتذر حين لا ينفعه الاعتذار، ولا يملك الا أن يسخط على هؤلاء السادة داعياً عليهم، لا عنا إياهم^(١٤).

العادات والتقاليد :

ومن أهم ما يميز المجتمعات سيطرة العادات والتقاليد عليها، وقد اصطلم الإسلام أول أمره بمجتمع تسيره العادات والتقاليد، وتتحكم في كل شئونه حتى في نفسيات أفراده، وبخضوعهم وانقيادهم الكامل لكل ما هو موروث عن الآباء والأجداد^(١٥).

وكان من أبرز أهداف القرآن الكريم ، تغيير تلك الأوضاع الاجتماعية البالية، وقد نحاش

(١٤) أسلوب السخرية في القرآن الكريم (عبدالحليم حفى) مصدر سابق ص ١١٢.

(١٥) نفس المصدر ص ٥٥ و ٥٦ .

القرآن الكريم في هذا الصدد النهى المجرد بالأسلوب العادى، ولجأ الى أسلوب السخرية والتصوير المثير، لأنه أبلغ وسيلة في معالجة العادات والتقاليد الفاسدة.. فكانت سخرية القرآن الكريم اللاذعة من تلك العادات ومحاكاة الآباء دون وعى أو ادراك، ورفض الاستجابة للدين الجديد جملة وتفصيلا، ومن ذلك قوله تعالى:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَفْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْعًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِينَ يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ؕ صُمُّ بُكْرٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »

(البقرة ١٧٠ - ١٧١)

فالقرآن الكريم يندد بتلقى أى شئ في أمر العقيدة من غير الله، ويندد بالتقليد في هذا الشأن والنقل بلا عقل ولا إدراك. ثم يرسم لهم صورة (كاريكاتورية) مزرية تليق بهذا التقليد، وهذا الجمود.. صورة البهيمة السارحة التى لا تفقه ما يقال لها - بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد صوت لا تفقه ماذا يعنى. بل هم أضل من هذه البهيمة، فالبهيمة ترى وتسمع وتصيح، وهم صم بكم عمى، ولو كانت لهم أذان وألسنة وعيون، ماداموا لا ينتفعون بها ولا يهتدون، وهذه منتهى الزرابة بمن يعطل تفكيره، ويغلق منافذ المعرفة والهداية، ويتلقى في أمر العقيدة والشرعة، من غير الجهة التى ينبغى أن يتلقى منها أمر العقيدة والشرعة^(١٦).

صورة (كاريكاتورية) أخرى، يرسمها القرآن الكريم في اطار حملته على العادات والتقاليد البالية، واتباع الآباء والأجداد دون وعى أو تفكير.. يقول تعالى:

«أَذَلَّكَ خَيْرٌ زُلًّا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿١٧١﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً

(١٦) في ظلال القرآن ، مصدر سابق ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٣﴾
 طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٤﴾ فَإِنَّهُمْ لَا كُفُونَ مِنْهَا
 قَالُوا لَوْ أَنَّ الْبُطُونَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ
 حَمِيمٍ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٧﴾ إِنَّهُمْ
 الْفَوَءَاءُ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٨﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ

يَهْرَعُونَ «

(الصافات ٦٢ - ٧٠)

فان شجرة الزقوم وهى طعام أهل النار، تنبت فى قعر جهنم، وتتفرع فيها، وثمرها كأنه رؤوس الشياطين فى تنامى القبح والبشاعة، وقد شبهها الله تعالى برؤوس الشياطين، والناس لا يعرفون رؤوس الشياطين كيف تكون. ولكنها مفزعة قبيحة المنظر ولا شك، ويجرد تصورهما يثير الفزع والرعب. فكيف إذا كانت طلعا يأكلونه، ويملأون منه البطون؟ فهم عريقون فى الضلالة وهم فى الوقت ذاته مقلدون لا يفكرون ولا يتدبرون، بل يطيطرون معجلين يقتفون خطى آبائهم الضالين من غير دليل ولا برهان^(١٧).

ولو تبارى رسامو الكاريكاتور فى تصوير تلك الصورة، لأخرجوا لنا صورا مختلفة غاية البشاعة لتلك الشجرة العجيبة الغريبة، التى يأتى ثمرها كأنه رؤوس الشياطين.. وهذا الثمر هو طعام الذين اختاروا - عامدين - الضلال والسفاهة على الهدى والصواب، متمشلا فى اقتدائهم بهؤلاء الآباء. وفى ذلك منتهى السخرية والاستهزاء بهم^(١٨)..

ويرسم القرآن الكريم صورة (كاريكاتورية) أخرى أشد نكرا لهؤلاء المشركين، المعرضين عن القرآن وآياته وما فيه من المواعظ والنصائح والارشادات فيقول تعالى:

(١٧) فى ظلال القرآن ، مصدر سابق ج ٢٣ ص ٢٩٨٨ - ٢٩٩١ وكذلك صفوة التفسير مصدر سابق ج ٢٣ ص ٣٦ - ٣٧.

(١٨) أسلوب السخرية فى القرآن الكريم (عبدالحليم حنفى) مصدر سابق ص ٥٧.

«فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ

مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ»

(المدثر ٤٩ - ٥١)

أى كأن هؤلاء الكفار حمر وحشية نافرة وشاردة هربت ونفرت من الأسد من شدة الفزع. وقد شبههم تعالى بالحمر النافرة مذمة لهم وتهجيناً، ومشهد حمر الوحش وهى مستقرة تفر فى كل اتجاه، حين تسمع زئير الأسد وتخشاه، مشهد يعرفه العرب. وهو مشهد عنيف الحركة.. مضحك أشد الضحك حين يشبه به الآدميون عندما يخافون. فكيف إذا كانوا انما ينفرون هذا النفار الذى يتحولون به من آدميين الى حمر، لا لأنهم خائفون مهددون، بل لأن مذكرا يذكرهم برهبهم وبمصيبرهم، ويمهد لهم الفرصة ليتقوا ذلك الموقف المزرى المهين، وذلك المصير العصيب الأليم؟ انها الريشة المبدعة ترسم هذا المشهد وتسجله فى صلب الكون تملأه النفوس، فتخجل وتستنكف أن تكون فيه، ويروح النافرون المعرضون أنفسهم يتوارون من الحجل مخافة هذا التصوير الحى العنيف^(١٩).

ويرسم معلم قرآنى آخر، صورة توضح أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله، ولن يدخلوا الجنة اطلاقاً، وذلك فى قوله تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا

لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ

ج
الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْحَيَاطِ»

(الأعراف ٤٠)

وتدعك الآية الكريمة ترسم بخيالك صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الجمل الغليظ فى ثقب الابرة، وهذا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة، كاستحالة دخول الجمل الغليظ فى ثقب الابرة على دقته، مبالغة فى التصوير^(٢٠).

(١٩) فى ظلال القرآن، مصدر سابق ج ٢٩ ص ٣٧٦٢ وكذلك صفوة التفسير مصدر سابق ج ٢٩ ص ٤٨٠.

(٢٠) صفوة التفسير، مصدر سابق، ج ٨ ص ٤٤٦ وكذلك التصوير الفنى فى القرآن (سيد قطب) مصدر سابق ص

سخرية بالهة المشركين :

وحين تذهب صور القرآن الكريم في سخريتها نحو الشرك بالله، نجدها تبرز عدة أمور، من أهمها ابطال الهدف الأساسى الذى تركز عليه عبادتهم لألهتهم، وهو أن هؤلاء الآلهة لن يحققوا لعابديهم شيئا. ومنها تحطيم جلال هؤلاء الآلهة ببيان حقيقتهم، فهذه صورة تحدث المشركين بأن آلهتهم لن تستطيع أن تخلق أضعف شئ، يضرب به المثل فى الهوان وهو الذباب. وترتكز سخرية الصورة على معنى معين، وهو تحدى هذه الآلهة أن تستنقذ من الذباب شيئا يسلبه منها. يقول تعالى:

« يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ »

فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ »

(الحج ٧٣)

فهذه صورة (كاريكاتورية) غاية فى السخرية، تصور الآلهة وهم مجتمعون يبذلون كل جهد لخلقوا أحقر المخلوقات التى يضيق الناس بكثرتها وحقارتها، ومع ذلك يفشلون. بل أكثر من ذلك يصور الرسم (الكاريكاتورى) هؤلاء الآلهة وهم يسابقون الذباب ليتستقذوا منه شيئا سلبهم اياه ثم لا يستطيعون. وتصور الخيال للآلهة فى هذا الوضع غاية فى الاستخفاف بهم والسخرية منهم^(٢١).

ومعلم قرآنى آخر يبرز معنى أن الله وحده يستجيب لمن يدعوه، ويعطيه ما يرجوه. وأن الآلهة التى يدعونها مع الله لا تملك لهم شيئا، ولا تنيلهم خيرا ولو كان الخير قريبا. فيرسم لهذا المعنى تلك الصورة (الكاريكاتورية) العجيبة المتمثلة فى قوله تعالى:

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۚ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ

(٢١) أسلوب السخرية فى القرآن الكريم (عبدالحليم حنفى) مصدر سابق ص ١٠٧.

« لَهْمُ بَشَىءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ

بِابِلَغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ »

(الرعد ١٤)

والمشهد هنا ناطق متحرك، يرسم صورة (كاريكاتورية) من أعجب الصور التي تستطيع بأن ترسمها الألفاظ .. شخص حتى شاخص ملهوف ظمآن، باسط كفيه الى الماء، والماء منه قريب يريد أن يبلغ فمه، ولكنه لا يستطيع، وما هو ببالغه، وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء، وما دعاؤهم إلا في ضلال^(٢٢).

وهذا معلم قرآنى آخر يجسم ضعف الآلهة أو الأولياء من دون الله عامة، وهن الملجأ الذى يلجأ اليه عبادهم حين يجتمعون بحايتهم. وذلك فى قوله تعالى:

« مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ

كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ

الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »

(العنكبوت ٤١)

فهذه الصورة (الكاريكاتورية) تعتمد الى الزاوية المهمة فى نظر المشركين الى آلهتهم، وهى اعتمادهم على الآلهة، فيسخر القرآن من هذا المعنى، ويبين لهم أن هذه الآلهة لا تصلح ولا يرجى منها أى شىء. والقرآن يرسم لهم فى ذلك صورة مألوفة لديهم، هذه الصورة تتضمن أشخاصا أرادوا أن يتخذوا لأنفسهم سكنا وملادا يأوون إليه ويتحصنون فيه، فإذا هم لا يأوون الى بيت ولا الى حصن، وإنما الى نسج العنكبوت الواهى، ولكنهم لا يعلمون حتى هذه البديهية المنظورة فهم يضيفون الى الضعف والوهن، الجهل والغفلة، حتى ليعجزون عن ادراك البديهى المنظور^(٢٣).

(٢٢) فى ظلال القرآن ، مصدر سابق، ج ١٣ ص ٢٠٥١ - ٢٠٥٢ وكذلك التصوير الفنى فى القرآن (سيد قطب)

مصدر سابق ص ٣٨ - ٣٩.

(٢٣) التصوير الفنى فى القرآن (سيد قطب) مصدر سابق ص ٣٩ - ٤٠ وكذلك أسلوب السخرية فى القرآن الكريم

(عبدالحليم حفى) ص ١٠٨.

حالة الكافرين ومآلهم الضائع :

وبصور السياق القرآنى ، حال الكافرين المخيف الذى لا امن فيه ، ومآلهم الضائع الذى لا خير يرتجى منه ، وذلك فى رسم (كاريكاتورى) عجيب حافل بالحركة والحياة فى قوله تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ

« كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ

يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ

الْحِسَابِ »

(النور ٣٩)

فمن المعروف عن الصحراء ندرة الماء فيها، ومن أكبر مشكلات التنقل والسفر فيها ميسر الحاجة الى الماء. وحين تشتد حرارة الشمس وتقع على الرمال تحدث انعكاسات ضوئية، مما يسمى بالسراب، فيرى الناظر الى الصحراء حينئذ هذه التموجات الضوئية وكأنها مياه بحر واسع، وفى حالة المسافر أو الضال الذى فقد المياه، فانه يتصور أن أمامه بحرا حقيقيا فيظل يمشى اليه معتقدا انه سيبلغه، ولكن المسافة تظل ثابتة مهما مشى الى أن يسقط من الكلل والجهد. وهذه الصورة عن السراب مألوقة للعرب بحكم معيشتهم فى الصحراء، ولذلك ساقها القرآن لهم، فى سياق سخريته من الكافرين بالله، الذين يخدعون أنفسهم، ويخدعون الناس بما يقدمونه من أعمال باطلة.. والسياق القرآنى يرسم أفعالهم كسراب فى أرض مكشوفة مبسوطة، يلتصع التماعا كاذبا، فيتبعه صاحبه الظامى، وهو يتوقع الرى غافلا عما ينتظره هناك. فلا يجد ماء يرويه، وإنما يجد الله الذى كفر به وجحده، وخاصمه وعاداه، وجده هنالك ينتظره. ولو وجد فى هذه المفاجأة خصما له من بنى البشر لروجه، وهو غافل على غير استعداد، فكيف وهو يجد الله القوى المنتقم الجبار؟ «فوفاه حسابه».. هكذا فى سرعة عاجلة تتناسق مع البغته والمفاجأة «والله سريع الحساب» تعقيب يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع^(٢٤).

(٢٤) فى ظلال القرآن، مصدر سابق ، ج ١٨ ص ٢٥٢١ وكذلك أسلوب السخرية فى القرآن الكريم (عبدالحليم حفى) مصدر سابق ص ١٤١ - ١٤٢.

وكمثل للانحراف عن سواء الفطرة ونقض لعهد الله المأخوذ عليها، ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها.. ذلك الذى آتاه الله آياته، فكانت فى متناول نظره وفكره، ولكنه انسلخ منها، وتعزى عنها، ولصق بالأرض واتبع الهوى، واستولى عليه الشيطان وأيس مطرودا من حى الله، لا يهدأ، ولا يطمئن، ولا يسكن الى قرار. ثم إذا هو مسخ فى هيئة الكلب يلهث ان طورد، ويلهث ان لم يطارد.. يقول تعالى فى هذا الشأن:

«وَأَنْزَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي

ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ

الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى

الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ

عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ

كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا فَأَقْصِصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا

يَظْلِمُونَ»

(الأعراف ١٧٥ - ١٧٧)

فهذا مشهد من المشاهد العجيبة، لو استطاع رسام كاريكاتورى ماهر أن يصوره، لخرج برسم معبر شاخص السمات، بارز الملامح، يحمل كل ايقاعات الحياة الواقعية.. انسان يؤتبه الله آياته، ويخلق عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع.. ولكن ها هوذا ينسلخ من هذا كله انسلاخا. ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحق من أديمه اللاصق بكيانه.. ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بانس نكد.. إذا نحن بهذا المخلوق لاصقا بالأرض ملوثا بالطين.. وتستغل سخرية القرآن معرفة العرب للكلب وتحقيرهم إياه، فيتخذ منه صورة يرسمها

للكافر الحقير الذى لا يفرق بين الهدى والضلال.. وتبرز سخرية القرآن وصفا ملاحظا بوضوح فى الكلب، وهو أنه يلهث دائما فى غير ما يدعو الى ذلك. فهو يخرج لسانه ويلهث بقوة دون أن يعانى جهدا أو مشقة أو عطشا، فهى طبيعته التى طبع عليها. فكذلك هذا الكافر الذى كرمه الله فأعطاه من نعمه ومعرفته وهداه الى خيره ورشده، ولكنه ترك هذه النعم ولفظ هذه الهداية، وأنزل نفسه الى وضع خسيس حقير، فكان ذلك فى أشبه بالكلب فى خسته وحقارته، لأن طبيعه غير مهيا للهداية، ولا للوضع الكريم، كطبع الكلب الذى يفرض عليه أن يلهث سواء تحمل جهدا أو لم يتحمل.. انه مثل لكل من آتاه الله من علم الله، فلم ينتفع بهذا العلم، ولم يستقم على طريق الايمان، وانسلخ من نعمة الله، ليصبح تابعا ذليلا للشيطان، ولينتهى الى المسخ فى مرتبة الحيوان (٢٥).

صورة كاريكاتورية للمنافقين :

ويرسم السياق القرأنى صورة (كاريكاتورية) فريدة للمنافقين، تثير السخرية والهزء والزراية بهذا الصنف الممسوخ المطموس من الناس، وتسهم بالفراغ والخواء، والانطماس والجبن، والفزع والحقد والكنود. بل تنصبهم تمثالا وهدفا للسخرية فى معرض الوجود.

« * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا
تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ^ط كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مُّسْنَدَةٌ ^ط يَحْسَبُونَ كُلَّ
صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ ^ط أَنْى ^ج
يُؤْفَكُونَ »

(المنافقون ٤)

فهم أجسام تعجب، لأناس تتجاوب وماداموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون.. فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى، ومن كل حس، ومن كل خالجة. «تسمع لقولهم كأنهم خشب ينطقون فهم خواء من كل معنى، ومن كل حس، ومن كل خالجة.

(٢٥) فى ظلال القرآن، مصدر سابق ، ج ٩ ص ١٣٩٦ و ص ١٣٩٨ وكذلك أسلوب السخرية فى القرآن الكريم (عبدالحليم حنفى) مصدر سابق ص ١٤٨ - ١٤٩.

مسندة» لا حركة لها، ملطوعة بجانب الجدار. وهذا الجمود الراكد البارد يصورهم من ناحية فقه أرواحهم ان كانت لهم أرواح، ويقابله من ناحية أخرى حالة من التوجس الدائم، والفرع الدائم، والاهتزاز الدائم. «يحسبون كل صيحة عليهم» فهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء. وهم يخشون في كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح، وسترهم قد انكشف.. والتعبير يرسمهم أبدا متلفتين حواليتهم، يتوجسون من كل حركة، ومن كل صوب، ومن كل هاتف، يحسبونه يطلبهم وقد عرف حقيقة أمرهم^(٢٦).

الاصلاح الداخلى :

وبالرغم من أن القرآن الكريم، كان يركز سخريته على أعداء الإسلام وأهله، إلا أنه جعل للجبهة الداخلية للمسلمين نصيبا من السخرية، لحمايتها مما قد يشوب صفاءها، أو يفسد طهرها من مختلف الانحرافات، أو الانسياق وراء الفرائز والنزوات، واتباع المطامع والأهواء، وما يجرد ذلك كله على المجتمع الإسلامى من انحرافات، أو ظهور أخلاق لا تتفق مع مبادئ الشرع الحنيف. فالسخرية لها أثرها في المحافظة على الجبهة الداخلية، والتغيير الاجتماعى الى ما هو أفضل^(٢٧).

ولقد أولى القرآن الكريم هذا الجانب من سخريته اهتماما واضحا، وذلك بابرار العيوب التى ينهى عنها، أو يأمر بتحاشيها، فمثلا ينهى القرآن عن أنواع من السلوك كانت شائعة في المجتمع الجاهلى، كالتعالى، والتجبر، واصطناع مظاهر فظة خشنة من السلوك، والحركات في المشى والكلام واللباس، وغير ذلك من المظاهر التى يرون فيها مظهرا للسيادة، وبسطة النفوذ، ورهبة الجانب. ولكن القرآن الكريم لم يسلك في النهى عن ذلك أسلوب المعانى المجردة، أو الوعيد والترهيب، وإنما سلك أسلوب السخرية التى ترسم في ذهن السامع صورة منكرة لمن يزاول هذا المسلك أو يظهر بهذا المظهر. وبذلك تتحول صورة المظاهر التى كان يصطنعها السادة، والمتكبرون، والمتجبرون الى صورة منفردة، لا تثير اعجابا، ولا اكبارا، وإنما تثير سخرية، وضحكا، وازدراء لمن يدنو منها^(٢٨).

(٢٦) في ظلال القرآن ، مصدر سابق ، ج ٢٨ ص ٣٥٧٤ - ٣٥٧٥ .

(٢٧) أسلوب السخرية في القرآن الكريم (عبدالحليم حفى) مصدر سابق ص ٥٧ .

(٢٨) نفس المصدر السابق ص ٥٧ - ٥٨ .

فنجسد القرآن الكريم يدعو في الخلق الاجتماعي، الى التواضع، ولين الجانب، والألفة وذلك في قوله تعالى:

«وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» (لقمان ١٨)

فالقرآن يصور صورة لشخص متعجرف متعال على الناس، يمشى شاخحا بأنفه، معرضا عنهم بوجهه، مختالا مزهوا بكبريائه، ولكن القرآن لا يسلك في سبيل ذلك الوعظ الكلامي، وبيان مضار الكبرياء، وفوائد التواضع، وإنما يرسم للمتكبر المتعال على الناس، لوحة كاريكاتورية، لو استطاع رسام كاريكاتوري أن يبرز ما تتضمنه في رسم كاريكاتوري، لكان رسما بارعا يحقق الهدف المطلوب من أقصر طريق.. فالقرآن الكريم يستغل معلومات البيئة وخبراتها، لتكون أقرب الى النفس وأوقع فيها. ومن هذه المعلومات، ما ورد في تلك الآية الكريمة التي قرنت صورة المتعجرف المتعال المتكبر، بصورة جمل مريض بداء الصعر الذي يعرفه العرب، ويصيب الأبل فيلوى أعناقها، وتمشى معوجة الرقبة.. فالقرآن يعمد الى لفظ هذا المرض، فيصم به المتكبر المغرور المتعال على الناس، الذي يمشى شاخحا بأنفه، لاويا عنقه، معرضا بوجهه عن الناس، وهو لا يحسب أن في ذلك ترفعا وهيبه، ومكانة بين الناس، فاذا القرآن الكريم يجعله مجرد مريض بداء الصعر، وهذه الصورة (الكاريكاتورية) البالغة في السخرية، ترسم في ذهن السامع وكأنها ماثلة أمامه، ومن البدهى أن تحضره كلما شاهد شخصا تنطبق عليه (٢٩).

ومن ذلك أيضا تلك السخرية الشديدة التهكم بالمتكبر المختال، الذي ترسمه سخرية القرآن رسما (كاريكاتوريا) مضحكا، بأنه يمشى مشية عجبية غريبة، ويضرب الأرض بقدميه كأنه يريد أن يخرجها، ويشمخ بأنفه ووجهه الى السماء، كأنه يريد أن يطاول الجبال في ارتفاعها، فيقول تعالى:

«وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ

الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ

سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا»

(الاسراء ٣٧ - ٣٨)

(٢٩) أسلوب السخرية في القرآن الكريم (عبدالحليم حفتى) مصدر سابق ص ٥٨ و ص ١٠٦ - ١٠٧.

ولو استطاع رسام كاريكاتورى أن يرسم هذا المنظر لكان من أبلغ الرسوم الكاريكاتورية الساخرة. فالسخرية الشديدة واضحة في قوله تعالى «أنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا» لأن احدا لا يظن أنه سيخرق الأرض مهما تكن مشيته، خاصة إذا تصورنا أن الأرض التى يمشى عليها صخرية صلبة جدا كما لا يظن أحد أنه سيبلغ بقامته رؤوس الجبال مهما مد عنقه، وشمخ بأنفه، وتناول برأسه وقامته. ولكنه التصوير القرآنى الساخر الذى يقرن هذه المشية بهذه الصورة الشديدة السخرية، سواء في نفس من يريد أن يمشيها أو في نفس من ينظر اليه (٣٠).

كذلك من المظاهر التى نهى القرآن الكريم عنها، ما كان يلجأ إليه المتعالى المتجبر، من اصطناع صوت خاص قوى شديد النفاذ الى الآذان، يتسلح به حينما يحتك بالناس، لابرار هيبته، وجبروته، وارهابهم وتخويفهم، يقول القرآن الكريم في ذلك على لسان لقمان وهو يعظ ابنه

«وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ»

(لقمان ١٩)

فألسلوب القرآنى يرذل هذا الفعل ويقبحه في صورة منفرة بشعة، حين يعتمد الى هذا الصوت المصطنع فيقرنه بأبشع صورة وأنكرها، وهى صورة حمار ناهق، فيرتسم مشهد مضحك يدعو الى الهزء والسخرية، وبذلك يفقد هذا الصوت تأثيره وهدفه، بل ويتحول الى عكس المقصود منه، فيدل أن يثير في نفس سامعيه الخوف والرهبة، يصبح بسخرية القرآن منه لا يثير الا السخرية من صاحبه والتهكم به. ولا يكاد ذو حس يتصور هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع، ثم يحاول شيئا من أصوات هذه الحمير (٣١).

وحين ينهى القرآن الكريم عن الغيبة، كان يمكن أن يكتفى بمجرد تجريمها أو بيان أضرارها، أو الأمر بالابتعاد عنها، ولكن القرآن يرسم لذلك صورة معينة لتحقيق هذا التنفير، حيث يشعر السامع كأنه يرى هذه الصورة بعينه، ويرى منها موضع السخرية واضحا بارزا. يقول تعالى:

(٣٠) أسلوب السخرية في القرآن الكريم (عبدالحليم حفى) مصدر سابق ص ١٤٠ - ١٤١ و ص ١٨١ .
(٣١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم (عبدالحليم حفى) مصدر سابق ص ٥٨ وكذلك في ظلال القرآن، مصدر سابق ج ٢١ ص ٢٢٩٠.

«وَلَا يَغْتَبِ

بَعْضُكُمْ بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرِهْتُمُوهُ»

(الحجرات ١٢)

فأى اشمئزاز، وأى تفرز تشيره صورة شخص يأكل لحم آدمى، بل جيفة آدمى. وهذا الاشمئزاز واثارته في النفس مقترنا بالغيبة هو هدف الآية الكريمة في تصويرها. وفي تشبيهها المغتاب بأكل جيفة آدمى، وهذا الآدمى أخ. ولو اقتضت الآية على مجرد النهى عن الغيبة، وكانت خالية من هذه الاثارة لما كان لها هذا الأثر الواضح (٣٢).

كانت هذه مجرد بعض النماذج من تصوير القرآن الكريم، الذى شمل تصويره كل ما يهدف إليه القرآن من دعوة، ولو ذهبنا نستقصى ذلك في القرآن لضاق عنه كتاب بل كتب كثيرة، ولقد وجدنا في كل تلك النماذج التى قدمناها، خصائص التعبير القرآنية التى تتجلى في قيام الكلمة مقام الخط واللون، إذ سرعان ما ترتسم الصورة (الكاريكاتورية) من خلال عدد قليل من الكلمات أو العبارات، ثم سرعان ما تنبض هذه الصور وكأنها تموج بالحياة (٣٣) ... ومن الواضح أن سخرية القرآن الكريم في تلك الرسوم (الكاريكاتورية) المعبرة، كانت بعيدة كل البعد عن الاقذاع، وعن ثبؤ الألفاظ، بل عن طابع العداء الشخصى، أو العداوة لذاتها.. لقد كانت تلك الرسوم (الكاريكاتورية) الساخرة مثلاً أعلى للسمو الذى لا يهدف إلا الى الغاية العليا. تحقيق الخير للناس في دينهم ومعيشتهم.. فان سخرية القرآن الكريم، في تلك الرسوم (الكاريكاتورية) التى تسخر من قادة المشركين وزعمائهم، فانما يهدف الى تحطيم هالتهم الكاذبة في نفوس الأتباع، حتى يشوبوا الى رشدهم، ويدركوا أن هؤلاء القادة لن يغنوا عنهم شيئاً، وانما يسوقونهم الى الضلال والهاوية. وحينما يرسم القرآن الكريم تلك الرسوم (الكاريكاتورية) التى تسخر من بعض الخلق السائد في المجتمع، كتصغير الخد، والتعالى على الناس.. الخ فانما يهدف الى تحقيق مجتمع فاضل تسيطر عليه مظاهر الرحمة والتعاون، وتبادل التقدير والاحترام.. وكل ذلك وغيره كان واضحاً تمام الوضوح فيما سبق التمثيل به من المعالم القرآنية للرسوم (الكاريكاتورية) الساخرة.

(٣٢) أسلوب السخرية في القرآن الكريم (عبدالحليم حنفى) مصدر سابق ص ١٠٤ .

(٣٣) في ظلال القرآن، مصدر سابق ج ١ ص ٣٧ .